أدب الرحلة في المشرق

يقول فرنسيس بيكون عن السفر:"إنّ السفر تعليم للصغير،وخبرة للكبير" رؤية يمانية في أدب الرحلات،ص13.

تمهيد:

أدب الرحلة هو نوع أدبي متميز يقوم في جوهره على أساس تجارب الأفراد في أسفارهم وتنقلاتهم عبر الأماكن والبلدان ومعايشتهم لمختلف الثقافات والعادات والتقاليد، وعادة ما تركز هذه الأعمال على التجارب الشخصية للكاتب أثناء سفره إلى أماكن غير معروفة أو غريبة،وهو في استطلاعاته اليومية يحاول أن يصف تجربته على مختلف الأصعدة ؛على صعيد اكتشافاته للأماكن الجديدة، وعلى مستوى اللّسان في اكتشافه للهجات والألسنة المختلفة،وعلى الصعيد الثقافي في اكتشافه لطبائع الشعوب وعاداتهم وتقاليدم وعلى صعيد التاريخ وحركية الزمن يقدّم لنا تقلّبات العصور وحوادث الأيام، فالهدف الرئيسي من أدب الرحلة هو مشاركة الانطباعات والاكتشافات والملاحظات التي يمر بها الكاتب أثناء سفره إلى البلدان التي زارها. وغالبًا ما تتضمن هذه السرديات أوصافًا جغرافية وثقافية وتاريخية واجتماعية للأماكن.

وهو ذلك الأدب الذي يصوّر فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلةٍ قام بها إلى أحد البلدان. يعنى أساسا بالرحلات الواقعية ذات المُحدّدات المكانية والزمانية ، سواء جرت فوق الأرض ، و في أعماق البحار ، أو في السماء ، ولا يعنى أدب الرحلات بالرحلات الخيالية )1 عبد الوهاب محمد العمراني : مشاهدات وانطباعات من الشرق والغرب: رؤية يمنية في أدب الرحلات.

وأدب الرحلات يعدّ بذلك خزّانا هائلا لمعرفة البلدان والثقافات الإنسانية واكتشاف المجهول،والوصول إلى معرفة طبيعة الشعوب وخصائصها،وقد يكون وسيلة من وسائل الحملات العسكرية التي تعتمد على الاستطلاع والاكتشاف المسبق،وقد يكون مصدرا للمؤرخ والجغرافي والاجتماعي في معرفة الحدود ومصادر المياه والأراضي الخصبة، أمّا على المستوى الأدبي والفني فهو أداة لاكتشاف المحامد والأخلاق الفاضلة، ومختلف المعارف والعلوم التي تمتلكها الشعوب،وما لديها من آداب وعمق تاريخي ودينيّ.

مفهوم أدب الرحلة:

أوّلا من حيث اللغة: ورد في معجم مقاييس اللغة في مادة (ر ح ل):"الرّاءُ والحاءُ واللامُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مضِي في سفر..."(معجم مقاييس اللغة،ابن فارس،ص498.

ونقول:" اِرتحل اﻟﻘَﻮمُ ﻋَﻦ المكانِ ارتحالًا، و رَﺣَﻞ عن المكان يرحلُ وهو راحلٌ من قومٍ رحّلٍ:انتقل..، والترحّلُ والارتحالُ:الانتقال وهو الرّحلة والرُّحلةُ"

والرُّحَالُ: العرب الذين لا يستقرون في مكان ويحلّون بماشيتهم حيث يسقط الغيثُ وينبُت المرعى، فهم لا يثبتون في مكان واحد.

اصطلاحا:

يعدّ هذا النوع من الأدب من أقدم أنوع الفنون الأدبية،والتي ازدهرت بمرور العصور،وازدهار الثقافات وتطور المجتمعات،فهو" مجموعة الآثار الأدبية،تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة،وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق،لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كلّ هذا في آن واحد"(مجدي وهبة:معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب،ص17).

خصائص أدب الرحلات:

يتميز أدب الرحلات بخصائص أسلوبية ومضمونية تميّزه عن بقية الأنواع النثرية.

فهو بالنظر إلى طبيعته وموضوعه يعتمد على:

1/الوصف:حيث يؤدي فيه دورا أساسيا وذلك في رصد تفاصيل المناظر وتضاريس المكان والآثار العمرانية والمعالم والأماكن الخاصة،بالإضافة إلأى المناظر والنباتات والروائح وغيرها،والهدف هو دفع المتلقي إلى معايشة تجربة المؤلف معايشة حيّة.

2/السرد بصيغة المتكلم:عادة ما يرد أدب الرحلة بأسلوب قصصي وسرد بصوت الأنا المتحدّثة،التي تكشف عن مغامراتها ومشاعرها وأحاسيسها باتجاه ما ترصده،وتحاول أن تقرّب ذلك إلى القاريء بكلّ حميمية.

3/اعتماد أسلوب الحوار:

قد يتضمن أدب الرحلات محادثات من الكاتب مع أشخاص يلتقيبهم في رحلته ،فينقل هذه المحاورات كما جرت إلى المتلقي،ممّا يخلق جانبا من الحيوية والقبول لدى المتلقي.

4/ اعتماد لغة التصوير والمجاز:

غالبا ما يكون أسلوب أدب الرحلات غنيا بالاستعارات والكنايات والمجاز والتشبيهات،حتى يحرّك مخيلة المتلقي ويجعله يتصوّر هذه المشاهد ويستحضرها ويتفاعل معها.

5/العناية بالمحسنات البديعية وتجميل الأسلوب.

أنواع الرحلات:

يتحدّد نوع الرحلة الأدبية من خلال معرفة الهدف والغاية من الرحلة، لذا انقسمت إلى أنواع نذكر منها: الرحلات العلمية، الرحلات الدينية، الرحلات السياحية، الرحلات الجغرافية.

أهمّ الرّحلات في التراث العربي:

هناك العديد من الرحلات دونتها كتب الادب العربي نذكر منهاك

رحلة المسعودي والبيروني وابن جبير،ابن عربي،المعري، وأشهرها:

رحلة ابن بطوطة: يُعد ابن بطوطة (1304-1377م) واحدًا من أبرز الرحالة في التاريخ العربي والإسلامي. قام برحلة طويلة امتدت أكثر من 30 عامًا، شملت معظم أنحاء العالم الإسلامي والمناطق غير الإسلامية، مثل الهند والصين وأفريقيا، كتب عن تجربته في كتاب "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، الذي يُعتبر من أروع الأعمال الأدبية في التراث العربي.